

حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية

و فرح سعد جامعة وهران 2

ملخص الموضوع

من خلال قراءة الكثير من مخطوطات الشيخ عثمان بن فودي ومن عاصره تبين أن الفترة التي عاشها الشيخ في السودان الغربي كانت فترة مليئة بالنشاط المستمر في مجال الدعوة والإصلاح على مختلف الأصعدة، كان شيخنا عثمان بن فودي من بين أبرز هؤلاء المصلحين، حيث شمل نشاطه داخل وطنه غوبر وخارجه مستعينا بطلبته الذين كونهم على يديه على رأسهم أخوه عبد الله بن فودي، كان اهتمامه بالإنسان، عقلا وفكرا وعقيدة، ذكرنا كان أو أنثى هو محور إصلاحاته، مستعملا أساليب التحبيب والترغيب ومستفيدا من ممارساته واحتكاكه بالناس، وليس من وراء الصوامع ودور العبادة، بل كان يتزل بدعوته إلى أرض الواقع، وقد حصل له ما يريد من رد الناس إلى دينهم وإدخال من كانوا في الشرك والضلال إلى الإسلام.

Abstract

By reading many manuscripts of Sheikh Othman bin Fode and his contemporaries, it seems that the period in which the Sheikh lived in western Sudan was a period full with constant activity in the field of advocacy and reform at various levels. Our Sheikh Othman was among the most prominent of those reformers, whose activities included his

homeland and outside with the help of his students ; on top of them his brother Abdullah bin Fode. He was interested in mankind, reason, thought and doctrine, be it male or female, as the focus of his reforms. He uses the granulation and exhortation methods ; taking advantage of his practices and inadvertent contact with people, and not from behind the silos and houses of worship. He invited others to Islam in the field, and he has achieved what he wanted from people by introducing them to religion to get rid of polytheism and misguidance.

كانت الحركة العلمية في السودان الغربي أو ما يسمى إفريقيا الغربية تتم بنقل المعرفة وتكريس الثقافة العربية الإسلامية، تزعم هذه الحركة الفقهاء والأدباء والشعراء، فنشأت طبقة مشبعة بالثقافة العربية الإسلامية، وأخذت مكانها في المجتمع الإفريقي وشكلت حركة فكرية وإصلاحية ناضجة، ولم تكن هذه الطبقة منعزلة وغير فاعلة، بل كانت متحركة، ولم تكن حبيسة المساجد رفقة طلاب حلقات العلم، بل انتشرت في المجتمع السوداني بمختلف فئاته.

وقد شهد القرن الثامن عشر حركات إصلاحية متعددة، فعلى غرار الحركات التي كانت في المشرق والمغرب الإسلاميين، شهد السودان الغربي حركة إصلاحية شاملة وعامة متمثلة في حركة الشيخ عثمان بن فودي، فمن هو الشيخ عثمان؟ وفيه تكمن إصلاحاته؟

هو عثمان بن محمد فودي والتي تعني بلغة الفلانين الفقيه (1) ابن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو بن جبو بن محمد ثنبو بن أيوب بن ماسران بن

أيوب بن بابا بن موسى جكلو (2)، من مواليد قرية مرت ولاية غوبر شمال نيجيريا حاليا سنة 1168هـ/1754م يوم الأحد. وهو من قبيلة الفلان. وقد كان الفلان ينقسمون إلى الرعاة ويسمون (البرروجي) (3)، والمستقرون وكانوا يسمون (فلانين قيذا) أي الفلاني أصحاب البيوت، ومن الصنف الثاني هؤلاء ظهر العلماء، ومنهم الشيخ عثمان بن فودي (4). وقد هاجرت قبيلة شيخنا من فوت تور الواقعة على نهر السنغال إلى بلاد الهوسا في حوالي القرن التاسع الهجري بقيادة جده الأكبر الرابع عشر الشيخ موسى جكل "جكلو" (5)

نشأته:

نشأ الشيخ عثمان في حجر والدين صالحين كان لهما فضل توجيهه في الدين والعلم والعبادة، نشأ في بيت له باع في العلم فقد كانت نساؤه يؤخذ عنهن، فضلا عن رجاله، فأمه حواء، وجدته رقية كانتا لهما الفضل في بداية تكوينه، فقد نشأ في بيت علم وتقوى، يذكر مصطفى مسعد أن أجداد الشيخ عثمان اعتنقوا الإسلام منذ زمن بعيد، واشتغل أبوه وأفراد أسرته بالعلم (6)

شيوخه:

وأما عن مشائخه فهم كثر وقد تعددت العلوم التي أخذ منها، فكانت له زادا في طريقه لإصلاح أحوال بلاده، فقد أخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، وأخذ الفقه من محمد تنبو بن عبد الله، والتفسير من الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن جد هاشم الزنفرى وأخذ الصحاح الستة عن الشيخ محمد بن راجي، كما أخذ عن الشيخ أحمد بابا التنبكي والشيخ عمر بن أفاقيت، ثم رحل في طلب العلم

إلى مناطق كثيرة وأخذ العلم من شيوخ أجلة أشهرهم الشيخ جبريل بن عمر (7)، وكان أكثر الشيوخ تأثيراً في حياته الحاج جبريل الأغدسي (8) الذي قال عنه: إن قيل في بحسن الظن ما قيل فموجة أنا من أمواج جبريل

مؤلفاته:

ترك الشيخ عثمان مجموعة من المؤلفات تصل إلى مائة مؤلف ما بين كتاب ومقالة قُتِمَ أغلبها بالتركيز على التربية العقدية وتوجيه الناس توجيهاً صحيحاً في حياتهم، خاصة وأن الوضع كان في غاية التعفن الخلقي، من أهم هذه المؤلفات:

1- كتاب بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان نصب الإمام وإقامة الجهاد. وهو

عمدة مؤلفات الشيخ لأهميته في بيان سياسة الدولة وفلسفة الحكم عنده.

2- كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة. وحصن الأفهام من جيوش الأوهام.

وهذان المؤلفان تبينان تأثير الشيخ عثمان بالحركة السلفية وحركة محمد بن

عبد الوهاب خاصة من ناحية الإصلاح الديني والعقدي.

3- كتاب سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان.

4- كتاب تحذير أهل الإيمان من التشبه بأهل الكفر والعصيان.

5- كتاب بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة الحمديدية.

إصلاحاته:

بدأ الشيخ عثمان إصلاحاته بمستويات مختلفة، بدءاً بالمستوى الفردي بنوعيه العوام والنخبة، ثم المجتمع بكامله.

عالج الشيخ عثمان في تربيته الإنسان على أنه روح وجسد وعقل، إذ إن طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الإنسان معالجة كاملة تتسم بالشمول، لا تترك في الإنسان شيئاً ولا تغفل عن شيء، جسمه وعقله وروحه. ومن ثم فالأساس النظري للتربية بوصفه أمراً معولاً عليه للتغيير والتجديد والإصلاح، وجد مجاله في التعليم (9) بنوعيه النظامي والمهني، فمن لم يفلح في النظامي يفلح في المهني، فلا يمكن أن يصير الفرد في نظره عالة لا يصلح لشيء، حيث يتم تدريسه بطرق بسيطة لا تستغرق وقتاً طويلاً ولا تكلف كثيراً.

ثم تعليم الصفوة، وهم خيرة طلابه الذين تربوا على يديه وحظوا بالاهتمام الأكبر، أطلق عليهم اسم الجماعة، ثم بدأ في تكوينهم روحياً، خاصة وأن الشيخ كان على الطريقة القادرية، ثم الهجرة بهم وهي الجانب العلمي للأسلوب التربوي الذي اتخذه الشيخ عثمان في تربية حواريه وجماعته حيث يقول: " (إن الهجرة من بلاد الكفار واجبة كتاباً وسنة وإجماعاً لقول الله تعالى: " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض

الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم" (10) فقد قال بعض المفسرين هذه الآية دليل على وجوب الهجرة من بلاد الكفار. أما السنة فقولہ صلى الله عليه وسلم " إن الله بريء من كل مسلم ساكن بين مشركين " ، وقوله عليه الصلاة والسلام " المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما " وقوله صلى الله عليه وسلم " من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله " (11)

ونظرا لما كانت تعاني منه المنطقة من كفر وجحود وانتشار للبدع والخرافات وتضييق من الطبقة الحاكمة على الناس في ممارسة دينهم بكل حرية فقد كان على الشيخ الانطلاق لإصلاح الأمر قبل فوات الأوان، وكذلك عملا برأي شيخه جبريل الذي عرض عليه أوضاع بلاد السودان ملخصا إياها في قصيدة قبل ذهابه إلى الحج، جاء فيها

وبعد فإن ذا تبصرة	للناس في السودان بل تذكره
فلا ترى منهم سوى من يدعي	إسلامه بفمه الموسع
راض بحكم الجاهلية التي	أزالها الله بوضع الشريعة
بينهم وبين أهل الشرق	تفرقة لاحت لأهل الحق (12)

قبل بدء عمله قام الشيخ بالسفر إلى عدة أماكن داخل بلاد الهوسا ليلتمس بنفسه الحياة الاجتماعية والأخلاقية للناس، وليدرس كيفية إرساء قواعد الإسلام، وكيفية إقناع الناس بحسن نواياه وإخلاصه، وكان من عادته ألا يزور أصحاب السلطان ولا يتعامل معهم.

كان كل اهتمامه تصحيح عقائد الناس، وهدم البدع، وإقامة السنن عن طريق الوعظ التعليمي، وشرح قواعد الإسلام بأسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. واتخذ من مدينة دغل (*Degel*) منطلقا لدعوته، ينطلق منها إلى أماكن متعددة ثم يعود إليها، وقد كان يصحبه في هذه الرحلة حواريه وتلاميذه المخلصين، وكان من بينهم أخوه عبد الله بن فودي حيث يقول: " ثم قمنا مع الشيخ نعينه على تبليغ، الدين، يسير لذلك شرقا وغربا يدعو الناس إلى دين الله، بوعظه وقصائده العجمية، ويهدم العوائد المخالفة للشرع فيأتي إليه الناس بالآلاف ويدخلون في جماعته"(13).

وقد كان يحضر إلى درسه الناس زرافات ووحدانا، فلم يرق هذا لمجموعة من العلماء الآخرين واهتموه بأماكن درسه صار مأوى للفساد الأخلاقي، فقاموا بالتشهير به وإعلان الحرب عليه، لكنه لم يأبه بهم وواصل دعوته، وكان من أساليب نجاح دعوته إضافة إلى التعليم ما يلي:

لغة التواصل بينه وبين الناس كانت مفهومة للجميع، خاصة وأنه كان يتقن الفلانية (فلفدى) والهاوسية والتماشق لغة التوارق، إضافة إلى اللغة العربية، التي كان يتقنها من خلال مجموعة من الأناشيد خاصة وأن غالبية سكان السودان الغربي تميل

إلى الترويح عن النفس بشكل مستمر كأناشيد في السنة وأخرى في الألعاب وبعضها في الصداقة، فكان يبين لمن في المجلس باللغة التي يفهمها كما قال ذلك عنه محمد بلو (14)

ركز على تعليم المرأة التي كانت تشكل نسبة كبيرة من المجتمع، وكون الشارع عنها هي أيضا بالتعليم وممارسة شعائر الدين، خاصة وأنه رأى أنها مهمة في ذلك المجتمع، ومساهمتها في المجتمع في ممارسة دينها وتعليم أبنائها منعدمة، رغم ما لقيه من معارضة بعض العلماء، فقد نظم فيه الشيخ مصطفى البرناوي وهو من شيوخ مملكة كانم أبياتا معاتبا ومنتقدا، جاء فيها:

عليك منا تحيات مباركة شمن مسكا وسكا من يلاقونا

يا ابن فودي قم تنذر أولى الجهلا لعلهم يفقهون الدين والدونا

فامنع زيارة نسوان لوعظك إذ خلط الرجال بنسوان كفى شينا

لا تفعلن ما يؤدي للمصاعب إذ لم يأمر الله عيبا كان يؤذينا (15)

فجاء رده عليه أن هؤلاء يحضرون الدروس ويتعلمون الإسلام فأنتاهم عن الاختلاط، فيعرفون أن ذلك حرام عليهن ثم أفردت للرجال يوما وللنساء يوما وهكذا لا تحرم المرأة من التعليم.

ومن أساليبه في الدعوة مخاطبة الناس على السواء بكلمة يا إخواني لما لها من وقع في النفوس، وتعامله هذا معهم كونهم إخوانا له لأن الداعية لا يميز نفسه عن غيره، والناس غنيهم وفقيرهم إخوانا له، وقد ألف في ذلك مؤلفات تنم عن تواضع

من هذه التآليف شمس الإخوان، إرشاد الإخوان، تعليم الإخوان. ومن بين مخاطباته التي وثقها طلبته قوله في موضع: "يا إخواني فاجتهدوا في تعليم النساء والأولاد والعبيد علم التوحيد والديانات وسائر المعاملات"، "... فاعلموا يا إخواني أن الورع استبراء للدين والعرض" (16)

ومن خلال ممارساته الميدانية للدعوة، اكتسب الشيخ تجربة في فقه الدعوة، وعمل على إتباع نهج متكامل هو ومن سار في فلكه من العلماء، فلم يكن تركيزهم على جانب معين من جوانب الحياة، وجدت هذه التجربة مبعثرة في طيات الكتب التي كتبها، وعند جمع هذه المادة وجد المسلم فيها منهجا متكاملا. كما التزم الشيخ بمرونة واعتدال في دعوته، وعفو عند المقدرة، ولعلمه بضرورة الاعتدال والمرونة فقد حث أتباعه ورباهم على عدم المصادمة مع معارضيهم، حتى بعد إذابتهم لهم، بل تحاشاهم كثيرا، وهاجر إلى منطقة أخرى ولم يكن متطرفا في رأي ولا موقف، ومن لينه أنه كان ذا رأي معتدل في حرية إتباع مذهب دون آخر لأتباعه، فقد قال: "إن الله تعالى لم يوجب على أحد في كتابه ولا سنة رسوله التزام مذهب من مذاهب المجتهدين إن جميع ما جاء عن الشارع عليه الصلاة والسلام لا يسمى مذهباً لأحد، بل هو شريعة يجب العمل بها على كل متدين بالإسلام ويجب إجابة دعوة كل من دعا إليه" (17)

ومن سياسته المرنة، فيذكر في كتابه بيان الهجرة على العباد قوله: "واعلم أن تخطئ في العفو في ألف قضية خير من أن تخطئ في العقوبة في قضية واحدة" (18) ويستدل بقول أحد الشعراء:

وإذا بغى عليك بجهله فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وهو بذلك يمثل قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" (19).

الهوامش

(1) أحمد محمد كاني، الجهاد في غرب إفريقيا. القاهرة، الزهراء للإعلام العربي 1407هـ/ 1987م ص59.

(2) آدم عبد الله الألوري، الإسلام في نيجيريا. القاهرة، دار المعارف ط3، 1978، ص 133.

(3) عثمان دان فوديو، بيان وجوب الهجرة على العباد. تحقيق فتحي حسن المصري. الخرطوم، دار النشر لجامعة الخرطوم 1978م. المقدمة.

(4) أبو الحسن علي السمان، تطبيق نصوص الفكر السياسي في دولة سوكتو. الخرطوم دار هایل 1990م.

Relation of Sektowite housa and :Djibo Hamani, Adar, The touareg and Sokoto Touareg During The 19th Century. In the histry of The Sokoto Caliphate, the Sokoto Seminar

Papers, the Department of History, A HMADO Bello, University, Zahira 1979, p369.

(5) أحمد عمر عبید الله، الأسس التربوية لحركة التجديد عند الشيخ عثمان دان فوديو. بحوث الندوة العالمية لجامعة إفريقيا العالمية. إصدار الجامعة ومنظمة الإيسيسكو 1996م. ص107

(6) آدم عبد الله الألوري، الإسلام في نيجيريا، ص 35.

(7) عثمان بن فودي، بيان وجوب الهجرة على العباد. المقدمة.

(8) ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية. معهد البحوث والدراسات العربية طبعة بغداد 1985، ص340.

(9) عثمان بن فودي، بيان وجوب الهجرة على العباد. ص19-21.

(10) عثمان بن فودي، شفاء الغليل فيما أشكل من كلام شيخنا جبريل، نشره البدوي تحت عنوان كتاب شفاء الغليل في العلاقة بين عثمان وجبريل. مجلة المنتقى، باريس 1975، ص18.

(11) سورة النساء الآية 97.

- (12) أحمد محمد كاني، المرجع السابق. ص 59.
- (13) المرجع نفسه. ص 67.
- (14) محمد بلو بن عثمان، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور. تحقيق علي عبد العظيم. القاهرة، دار مطابع الشعب 1383هـ/1964. ص ص 205-206
- (15) عبد الله بن فودي، تزيين الورقات. تحقيق هكست، طبعة أبادان 1963، ص 28.
- (16) عثمان بن فودي، وثيقة الإخوان. مخطوط بمكتبة جامعة إفريقيا العالمية المركزية، ورقة 7.
- (17) عثمان بن فودي، هداية الطالب إلى الصواب. مخطوط بمكتبة الدكتور الأمين أبو منقة، ورقة 45.
- (18) عثمان بن فودي، بيان وجوب الهجرة على العباد ص 117.
- (19) سورة الفرقان الآية 63.